الفصل التاسع

انطباعات زيارات خاطفة إلى إسرائيل

كل الزيارات إلى إسرائيل خاطفة . لم ينطبع لها فى النفس بعد بهجة السفر ولازهو الرحلات . وإنما لها سمة المهمة التى تؤدى .. فى صحبة نطير ، وكفريق نهبط ونتزل فى مكان واحد . ولا نطيق أن نتوه للحظة . نبحث عن بعضنا البعض دوماً ولو بتبادل النظر .. هل هو الإحساس بالغربة النفسية أيضًا ؟ !

ثم يأزف الوقت . ونخطف حاجاتنا القليلة . وطيرًا نعود . مجرد ساعات خاطفة قد تتعدى ليلة أو ليلتين .. ومع ذلك فهى مشحونة بالمعانى .. مكثفة بالمواقف . متضاربة المشاعر .. مليئة بالتناقضات . وعشرات من علامات الاستفهام والتعجب . وثرثرة أحاسيس تسجل فيها الكتب !

شعبان يمد كل منهما يده للآخر بالسلام . بودٍ باسم نعم . ولكن النفوس فيها ترقب وفضول . والعيون تتفرس فى العيون . تستكشف ، وتتفحص ، وتدرس وتختبر ... ربما هذا هو ما ينزع البهجة ويجعلك هكذا فى تكييف مشاعرك تحار !

انطباعات خاطفة عن إسرائيل

وأستطيع بعد أربع رحلات خاطفة إلى إسرائيل أن أطرح هذه الانطباعات : أبرز السمات فى المجتمع الإسرائيلى أنه مجتمع عامل بكل معانى هذه الكلمة .

وهو ما ينعكس على كل نواحى الحياة اليومية . وتراه بوضوح فى اختصار الشكليات والمظاهر .

لم أقابل بذخاً ولا رأت عينى ما يمكن أن تطلق عليه ترفاً . لا فى الشوارع ، ولا فى المساكن ، ولا فى الملبس ، ولا أسلوب الحياة . . وإنما كل ما هو ضرورى وعملى ومعقول فحسب . .

وحتى فى أرقى الفنادق لديهم . . تخلو تماماً من مظاهر المميزات الشكلية والترف الباذخ المعروف عالمياً . . فلا أثاثات فاخرة . ولا تحف غالية . ولا نجف يبهر . وإنما كل ما هو ضرورى وعصرى وبسيط وعملى ، مع إضافة لمسات من الذوق ، وبعض الأفكار المبتكرة . وهى تتراوح بقدر ما يدفع مقابلها فى فاتورة الحساب .

ولقد أتيح لنا أن نقابل خلاصة المجتمع الإسرائيلى كله ، وذلك خلال حفل العشاء الكبير الذى دعا إليه رئيس دولتهم إسحق نافون تكريماً للرئيس السادات وقرينته . . وبرغم أن الموائد كانت مُعدَّة وفق أرقى الأصول المتبعة عالمياً . وبرغم أن قائمة العشاء كانت فاخرة فإن نظرة إلى من حولك ستكشف لك حالاً عن طبيعة هذا المجتمع . . فلم يسبق لى أن عرفت فى أى مناسبة مماثلة مثل هذه البساطة والتواضع فى المظهر الاجتماعى وفى الشكليات .

وبنظرة واحدة إلى وجه أى رجل أو امرأة ستدرك حالاً أنه وجه يعكس حياة شاقة أو بالقليل حياة غير هنية . . إنه مجتمع (إسبرطى) ، وفق مفهوم الإغريق . . كانت المائدة التى جلست إليها تجمع بين (التوليفة) الآتية . . مدير جامعة حيفا وقرينته . . عضو فى الكنيست وقرينته . . سفير كندا فى إسرائيل وقرينته . والكاتب السياسى لصحيفة دافار وأنا .

ولم يتوقف سيل الأسئلة المتدفق نحوى طوال فترة العشاء التى استغرقت ثلاث ساعات إلا بقدر ما استغرق خطابى الرئيسين . . كل أنواع الأسئلة والاستفسارات

والتعليقات التى يمكن أن تخطر على البال . مؤتمر صحفى على كل مائدة جلس عليها مصرى فى ذلك العشاء .

وهذه هى إحدى أبرز سمات الإسرائيليين ، التساؤلات المتلاحقة ، والفضول « وجمع المعلومات » لايزال هو سيد الخصال التى يتصف بها الإسرائيليون .

ولو حصرت معظم هذه التساؤلات وحاولت إدراجها لوجدت عجباً .. إن معظمها إن لم تكن كلّها تعنى وتدور حول معنى واحد يؤكد سمة الشك التى التصقت بالإسرائيليين حتى أصبحت جزءًا لا يتجزأ من شخصيتهم .. إن كل فضول وتساؤل الإسرائيليين يدور حول استخلاص معنى واحد .

إنهم يريدون إجابة قاطعة عن سؤال لا يُفصح عنه ، وإنما يتردد متلاحقاً بداخلهم : أحقا هؤلاء المصريون راغبون فى السلام . أم هم يتظاهرون بذلك ؟ أهم منقسمون حول السلام أم مجتمعون ؟ هل نأمن لهم ؟ هل نصدقهم على المدى الطويل ؟ . تلك الشكوك المتوارثة . وذلك التردد الحذر الذى يغشى أحياناً كل الود والحرارة والترحيب .

تصدمنى أحيانًا نبرات الشك وسوء الظن والحذر ، خصوصاً عندما نناقش حقوق الفلسطينيين .

إن السادات عندما ردد أكثر من مرة أن السلام إستراتيجية بالنسبة لمصر وليس تكتيكاً . وأننا لا نتراجع عن السلام .. إنما كان يجيب عن أسئلة غير مسموعة وشكوك غير منظورة ، ومركبات مترسبة فى أعماق الإسرائيليين .. ربما هى التى تقف فعلا فى طريق الانطلاق إلى حل القضية الفلسطينية .

وكما أن همَّ الإسرائيليين هو البحث عن إجابة قاطعة عن نوايا المصريين .. فإن همنا الأكبر معهم هو قضية الفلسطينيين .

وفى اعتقادى أنه لو استبعدنا بضعة سياسيين ممن ينطبق عليهم وصف

المؤسسين ، وعدة شخصيات سياسية معدودة ومعروفة بالمغالاة والتطرف – فإن تحوُّلاً هائلا قد طرأ على تفكير الإسرائيلى العادى ، وأيضًا طرأ التشجيع على فئة من السياسيين المخضرمين .

قال محدثى الإسرائيلى :

ربما لا يبدو لكم هذا بحجمه الحقيقى .. ولكن مقابلة ديان للشخصيتين العربيتين – فى الضفة الغربية – وبرغم صلاتهما المعروفة بمنظمة التحرير فإن ما نراه هنا أولى خطوات تَحوُّل – على جانب كبير من الأهمية – فى اتجاه التعامل مع الأمر الواقع .. أى تدريجيًّا مع منظمة التحرير .

هل تدركون هذا التحول الذى يطرأ على التفكير الإسرائيلى .. ؟ لقد كنا هنا منذ بضعة أعوام فقط لا نعترف ولا نقر بوجود ما يسمى بشعب فلسطين . والآن الجدال قد تحول إلى إمكان احتمال وجود دولة مستقلة للفلسطينيين .. واستطرد يقول إننى لا أستبعد تغيرًا جذريًّا فى التعامل مع الفلسطينيين بما فى ذلك المنظمة .. سوف يطرأ فى وقت قريب خصوصًا فيما لو لم يعرقل ذلك عمل من أعمال العنف التى توصد العقول والقلوب .

إن ما يؤديه السادات كما أراه هو أشبه بالمعالجة النفسانية لما علق فى النفوس وترسب لدى الإسرائيليين .. وهو ليس بقليل ، فهى تبدأ من معاناة نالتهم فى أوربا على أيدى غيرنا ، تبعتها مقاومة طبيعية وجدوها من شعب آخر يدفع حياته ثمناً لها !

فى حيفا

سبتمبر ١٩٧٩

سألنى مدير جامعة حيفا ، ذلك الذى كنت أجلس إلى جواره على مائدة العشاء التى أقامها رئيس الدولة الإسرائيلية تكريماً للرئيس السادات قال : لدىَّ سؤال أريد توجيهه إليكِ . لو وجدت فيه أى إحراج فإن لكِ حق الامتناع .. مَنْ فى رأيك سوف يحظى بمكانة أكبر فى التاريخ . جمال عبد الناصر . أم السادات ؟

وجدتنى أجيبه : « السادات . برغم الزعامة الشعبية والعربية الهائلة التى تمتع بها عبد الناصر فى حياته ولا يمكن أن ينكرها أحد ! » .

ولم يكن القول يحتاج إلى تفسير لعقلية أكاديمية مثله . بأن التاريخ لا يسجل الانفعالات الشعبية ، ولا يفسح مكاناً لقوة التعبير ، وإنما يقيم الأفعال .

وهو لا يعتد بغير الوقائع والتأثير فى مجرى الأحداث ؟ والتاريخ يسجل الأخطاء بلا أعذار . ومَن الذى أضاع الأرض ومَن الذى استرد .

ألحت علىَّ هذه الخواطر أكثر من مرة على تفاوت وتناقض المواقف ، مرة عندما كنا فى زيارة أسرع من البرق إلى القدس العربية .. ولم تستغرق أكثر من مائة دقيقة .

كنا على العتبات الحجرية التى تفصل بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة . والنفس يغشاها ضياء خشوع روحانى ، ومشاعر انتماء تلقائى تفجر كالينبوع ..

ووجدتنى أقول (لرافى) دليلنا الإسرائيلى الذى رافق مجموعتنا :

« الآن زاد اقتناعنا أكثر مما مضى بعودة القدس العربية إلى السيادة العربية ، وبعد حوار قصير مع خادم المسجد الأقصى رفع عينيه إلى السماء وقال : « والله

نقبل أى حل يرفع عنا هذا الاحتلال » .

إن له أبناء ثلاثة فى المنظمة . منهم واحد فى الاعتقال الإسرائيلى لما يزيد على سبع سنوات ، والباقى يعيشون بين صفوف المنظمة فى الخارج ، قال : ولو خرجت إليهم فلن أتمكن أن أعود . لذلك أفضل أن أبقى وأنتظر . الفرج !

ولم أخط سوى بضع خطوات إلا وجدتنى طرفاً فى جدال حاد مع بعض الشباب الفلسطينى .. كنا على العتبات الحجرية ما بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة ..

ورمى أحدهم فى وجهى صارخًا بهذا الشعار : « نحن لا نؤمن إلا بقول عبد الناصر أن ما أخذ بالقوة لا يُسترد إلاّ بالقوة » وأدركت أكثر من أى وقت مضى بعد المسافة التى تفصل بين الماضى والحاضر .

وأحسست أنهم يعيشون بكل شبابهم ومستقبلهم يتعاطون مخدرات الوهم الذى أودى وأضاع الأرض .

وجهت الحديث إلى أحدهم قائلة له : تتحدث عن القوة .. فما هو سلاحك ؟ قال : يعطينا الاتحاد السوفيتى ألم يعطكم السلاح الذى حاربتم به فى عام ١٩٧٣ . لماذا أنتم ناكرون للجميل ؟

شعرت بالإشفاق عليه . فأنا أعرف مرضه ، فقد أصابنا ردحاً من الزمن .

وسمعت من الزملاء من يقول : تعالى ولا داعى لمناقشته ، « مغسول المخ » .

ومع ذلك وجدتنى أحاوره : قلت له اسمع الاتحاد السوفيتى أعطانا ويعطيك بقدر مالا يسمح لك بتهديد إسرائيل .. فالاتفاق كامل بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا فى هذه النقطة .

ولن يسمحا بخطر يهدد وجود إسرائيل . ألا تستطيع أن تميز هذه الحقيقة الإستراتيجية الثابتة منذ اللحظات الأولى لقيام الدولة الإسرائيلية . ما كنا سوى

أدوات لعب فى رقعة الشطرنج ولو انتبهنا منذ البداية لما ضاع كل ما ضاع .

سوف نتوصل جميعاً إلى حل ينقذ ما تبقى من الأرض بالتفاوض . كانت حبال الصبر قد نفدت من بعض من حولى . فقد كان نموذجًا للاندفاع الفلسطينى الغاضب بلا وعى أو تفكير .. شعرت بأن هؤلاء الشباب محصورون تماماً . تُرى من الذى يدفع الثمن لمن يبيع الوهم ؟

فئة أخرى من الفلسطينيين اكتشفناها خلال الرحلة إلى حيفا .

فمن الذى شغل ذهنه من قبل بهؤلاء الفلسطينيين الذين تمسكوا بموطنهم وبقوا فى بيوتهم الأولى ولم ينزحوا هرباً فى أعقاب قيام دولة إسرائيل ؟

مَن منا خطر له كيف يتعايش هؤلاء العرب مع اليهود . وكيف يفكرون ويتعاملون بعد أن تحوَّلوا إلى مايسمى : « بالعرب الإسرائيليين ، أين مكانهم فى المجتمع ؟ وهل بقوا واستمروا فلسطينيين فى قلوبهم وعرباً فى مشاعرهم أو أنهم تحولوا تماماً إلى ماذا ؟ » .

إن وهؤلاء جالية كبيرة فى حيفا ولهم وجود قوى وكيان ، ولكن الأمر الذى يستوقف حقًّا هو أن الجيل الجديد منهم – أى من أبناء الفلسطينيين الذين وُلدوا وشبوا داخل دولة إسرائيل – كانوا يشكلون أكبر التجمعات التى أذهلنا حماسها وانقطاعها وقوفًا بلا كلل ساعات متواصلة أمام الفندق طوال الأيام الثلاثة التى استغرقتها الزيارة لمجرد أن يتطلعوا إلى السادات أو يحظوا برؤيته .

كانت كلمة على الورق من أى مصرى تسعدهم . مجرد توقيع . شعور جارف وود صارخ من شباب بقى فلسطينيًّا عربيًّا إلى أعمق أعماقه ، ويتعايش مع الإسرائيليين . فئة ثالثة اكتشفناها إنسانيًّا خلال هذه الرحلة . . إنها فئة المواطنين الإسرائيليين الذين نزحوا من مصر وبقية البلاد العربية .. إنهم يهود . وإسرائيليون . ولكن لسانهم عربى وتفكيرهم (بالعربى) بل إن أذواقهم ومزاجهم وثقافتهم كلها

(عربية فى عربية) هؤلاء وجدانهم عربى ، وانتماؤهم عربى ، ولو حاولت أن أترجم عشرات المواقف الإنسانية والمشاعر الفياضة التى قابلتنا منهم لربما اتهمت بالمبالغة . ولكن فى حياتى لم أعرف من قبل لهفة وعاطفة طاغية ودموعاً محبوسة تفجرت من العيون مثل ما رأيت وعرفت من هؤلاء اليهود المصريين الإسرائيليين ..

ما أسرع تلاحق الأحداث فى شريط الذكريات ! مسيرة سلام عشت دقائقها وتابعت تفاصيلها ، وتفرغت لها ما بين القاهرة ، وأسوان ، وواشنطن ، وكامب ديفيد .. وها هى ذى تحط بنا أخيرًا فى إسرائيل .. عشنا حروفها وسطورها ، وطوينا صفحة بعد صفحة ، وفصلا بعد آخر .. تغيرت خلالها وتبدلت من حولنا بعض الشخصيات والوجوه ، واستمرت وجوه ، واستجدت شخصيات ، والمسيرة تتقدم . أحيانًا أفاجئ نفسى : « أحِلمٌ الذى يجرى أم علم ؟ » . من فرط سرعة تلاحق الأحداث .

ما أعجب النفس البشرية . ليس تغير الأحوال والظروف هو ما يستوقف .. وإنما كيف تتبدل معها المفاهيم وتختلف الرؤية والإدراك وحتى تقييم الأمور هذا هو ما يحير ، خصوصاً عندما تحاول أن تحلل الأمور وتعيدها إلى عواملها الأولية ، وتكون منطقيًّا فى تفكيرك وأمينًا مع نفسك وأسأل نفسى : بالأمس كنت صادقة واليوم أنا صادقة . ومع ذلك فما أبعد الفارق بين الأمس واليوم ، حتى فى التصاريف والقيم !

إننى لا أومن بفلسفة التاريخ على أساس نظرية (جوستاف لوبون) أى نظرية الراعى والقطيع .. كلا وألف كلا .. فى هذا العصر مع كل التطور العلمى والحضارى هذا هو عصر الرأى العام .. والزعامات والقيادات فى هذا العصر هى القدرة ، والإحساس بنبض الرأى العام ، واتخاذ مسئولية التعبير عنه .. إذن هل معنى ذلك أن السلام كان فكرة تجول فى ضمائرنا واستطاع السادات ببصيرته

السياسية أن يدركها ، ويتخذ على عاتقه مسئولية المبادرة بها ومواجهة نتائجها ؟

أريد أن أتوصل إلى نتيجة هامة ، وهى إمكان الاقتناع العقلى الكامل بالدور الذى يضطلع به الوفد المصرى فى مسئولية التفاوض باسم الفلسطينيين فى هذه المرحلة .. وكلما تعثرت مشاعرى فى الجدال الذى لا ينتهى بين كل منا وبين الإسرائيليين ألجأ إلى هذا السؤال الأساسى : « هل أنت على اقتناع كامل بهذا الطريق » ؟ وأجيب نفسى بلا تردد : نعم ، وتماماً . ولست مسيرة ، بل بالمنطق وبالإيمان نسير ولا رجعة فى ذلك أبدًا ، وأسجله عن نفسى لدى كل الأحوال والظروف !

إننى أرى الوفد المصرى فى المفاوضات لا تقل قيمته فى هذا التوقيت عن دور الجندى المصرى الذى بذل دمه فى أربع حروب متعاقبة مع إسرائيل .. إن لكلٍّ دوره وأهميته فى توقيته . وبغير التوقيت الصحيح قد يسيل الدم هدرًا . أو تضيع الجهود هباءً . واليوم هو أوان الجهود ..

ولكن فى إسرائيل تيار يدعو ويعبر ويطلب من ساسته أن يتعلموا أشياء وأشياء من مبادرة السادات !

وتابعوا هذا المقال الجاد الذى أفردت له صحيفة جيروزاليم بوست إحدى صفحاتها الرئيسية بتاريخ ٧ أغسطس عام ١٩٧٩ .

« بدلا من أن نجلس نفور ونندب وننتظر لحظة تقهقرنا دبلوماسيًّا خطوة بعد خطوة إلى الوراء ضد إرادتنا وبدون أى مقابل .. فإن علينا أن نعترف بالأمر الواقع . وهو وجود تيار جارف ومتزايد بتأييد حل المشكلة الفلسطينية فى الضفة الغربية وغزة .. وعلى ذلك علينا أن نتخذ زمام المبادرة على الأقل لنشارك فى وضع قواعد اللعبة » .

ويستطرد المقال يقول :

وتعلموا من السادات . فإن فن السادات فى تلك المبادرة الكبرى هو أنه لم يفعل كما يريد لنا بعض اليسار .. أن نقدم كل شىء بلا مقابل . ولم يفعل كما يفعل بعض اليمين أن يعيش فى عالم الأحلام الذى عاش فيه العرب .. ولكنه عندما أدرك أن إسرائيل ستظل قائمة دوماً . فإنه هز العالم هزًّا عندما بادر واعترف بها علناً .. ولكنه قدم أيضاً متطلباته . قدم كشف حساب بكل ما يطلب من مقابل . لقد أعطانا ما نريد . وهو الاعتراف ، ولكن بشروطه .

وما هو إذن ما يريده الفلسطينيون الآن ؟ وما يتفق معهم فيه العالم كل يوم أكثر فأكثر ؟ إنه الاعتراف بحقوقهم فى نوع من السيادة .. وأى مبادرة إسرائيلية فى هذا الاتجاه سيكون لها معنى سياسى ومعنوى بالقدر الذى يتيح لنا أن نضمِّنها شروطنا ، بحيث تبدو على الأقل مقبولة للمجتمع الدولى . أى مع الحفاظ على نقاط الأمن وتعديلات فى الأرض .

على الأقل مثل هذه المبادرة تؤدى إلى السلام بشروط أحسن لنا .. إنها على الأقل تضعهم فى موقع الدفاع .

بل ربما تغير من نظرة الحكومات الغربية إلينا والرأى العام العالمى . ومثل هذه الخطوة قد تحرج أيضاً من يجلسون على السور يتفرجون مثل الملك حسين .

فى القدس العربية

مايو ١٩٨٠

هل يحدث أن تقع فى هوى مدينة ؟ !

هل يمكن أن نرى الواقع بخيالنا ونقع أسرى مشاعرنا وينبض التاريخ فينا ؟ !

خشعت كالمأخوذة ، ومنذ الإطلالة الأولى هِمْتُ بالأحجار والأشجار .. بعتيق دروبها .. بأريج الماضى يفوح من شقوقها ، بمساجدها وكنائسها وأزقتها .. نقاء هوائها فى أنقى فاق كل نقاء ، وضياء سمائها فى عينى غير كل ضياء .

شتان بين ما قبل أن تجوس القدس وبعد أن تنبض فيها وبها . عندئذ تدرك جيدًا مقدار القيمة الروحية للقدس ، قيمة تساوى الحياة ذاتها . محاولات تهويد المدينة لم تفلح إلاّ فى التركيز على شخصيتها العربية ، ولم تؤد إلاّ إلى إبراز طابعها الدينى المتميز .

وكان الإضراب العام يلف المدينة بسكون غامض . والحياة تبدو فيها مهجورة فى وضح النهار . والحوانيت مغلقة . والأزقة تخلو إلاّ من بعض الأولاد يلعبون (الكرة الشراب) ..

احتجاج صامت يلف أنحاء المدينة . ومشاعر موحدة تجتاح الضفة . وأكاد أسمع هديرًا لثورة كامنة على وشك الاندلاع .

ويتيقظ العقل وينهأ القلب .. أهلاً .. وأهلاً ببوادر ثورة الأهالى على الاحتلال ! هذه هى نذر النهاية لكل احتلال ! عندما يثور الشعب المحتل فصوته يعلو على كل صوت ، وينصت العالم ، ويسود وجه كل احتلال :

إن نقطة تحول كبرى تحدث حاليًّا فى الضفة الغربية . لأول مرة منذ عام ١٩٦٧ تحدث هذه اليقظة القومية .

الحاكم العسكرى الإسرائيلى يصف أحوال الضفة الغربية بأنها أسوأ أحداث عرفها الإسرائيليون منذ حرب الأيام الستة . إنها إدانة لإسرائيل ، ووصمة فى جبينها .. وسُبة كبرى . إننى أعرف من بينهم من يحمر وجهه خجلا عندما تواجهه : « هل تحول ما كنتم تسمونه جيش تحرير اليهود إلى جيش احتلال للعرب !! » أى رسالة سامية هى تلك التى تحض على قهر القوميات وحكم شعب آخر بقوة السلاح ؟ !

obeikandl.com